اثنوغرافيا المشاهدة التلفزيونية مع الاقران في سياق الرّوضة
"دراسة ميدانية لعينية من أطفال ما قبل المدرسة بالجزائر العاصمة
خلال ديسمبر 2017 - ماي 2018"

Ethnography of TV viewing with peers in kindergarten context
"A field study of a sample of preschool children in Algiers
During December 2017 - May 2018"

رزيقة حيزير
أستاذة باحثة
كلية علوم الاعلام والاتصال -جامعة الجزائر 3-
البريد الاليكتروني: razika.hizir@gmail.com

تاريخ الاستلام : 2018/10/29 تاريخ القبول : 2019/02/13 تاريخ النشر : 2019/01/15

الملخص:

استهدفت هذه الدّراسة الاثنوغرافية ملاحظة (بالمشاركة) تفاعلات أطفال ما قبل المدرسة، وهم يعيشون تجربة المشاهدة التلفزيونية في سياق الرّوضة، من خلال محاولة استنطاق ممارسات الأطفال الأقران المتباينة أثناء المشاهدة؛ وأثر هذه العلاقات والسّلوكيات المختلفة وظروف المشاهدة الجماعية...

الكلمات المفتاحية: جماعة الأقران، سياق الرّوضة، طفل ما المدرسة.

Abstract:

The study revolves around an ethnographic research that is based on the participative observation of preschooler viewers' interactions in a receptive context (watching TV). The study's main objective is to analysing the practices of pair-children; their differences and the impact of both relationship and conditions of this collective reception experience.

Keywords: peer group, kindergarten context, pre-school children.

الاشكالية :

أشارت بعض الدّراسات التي تبحث في علاقة الطّفل بالتّلفزيون أنّ الأطفال يشاهدون التّلفزيون في سنواتهم المبكرة، بإعجاب شديد، تجذب انتباههم الصّور والألوان البرّاقة، والحركات والأصوات والموسيقى... وأنّ الصّغار يختلفون في تعاملهم مع مضامينه وفقا لعوامل فردية تتعلّق بعمر وجنس الطّفل ومستواه العقلي، بالإضافة إلى عوامل موضوعية خارجية أخرى. من هنا تكمن أهمية هذه الفئة كجمهور لوسائل الاعلام الجماهيرية، وجزءاً من الاهتمام بالواقع والمستقبل معا حيث تشكّل شريحة واسعة في المجتمع كما يشكّلون الجيل التالي. بالمقابل أكدت دراسات سوسيولوجية ونفسية على أهمية رياض الأطفال في حياة الصّغار، حيث أصبحت تشكّل هذه المؤسّسات اليوم الفضاء التّربوي التّعليمي من جهة، والفضاء الاجتماعي الّذي يرشد، ويحضر الطّفل إلى تحديد انتمائه الاجتماعي والحضاري، وتوسيع علاقاته، وإتاحة الفرصة أمامه للتّفاعل الدّيناميكي مع الآخرين، وللتّعبير عن الذّات والثّقة بالنّفس، وارتياد البيئة واكتشاف معالمها...

كما يعتبر التّلفزيون من بين الوسائط التي تستغلّها مؤسسّات رياض الأطفال بالجزائر في تحقيق بعض أهدافها. الأمر الذي يسمح للصّغار بالاجتماع حول الشاشة في سياق جديد بعيدا عن أحضان أسرهم، لتبروز ظاهرة تستّحق الاهتمام والدّراسة من جوانب عدّة (القانونية والنّفسية والاجتماعية والإعلامية)، متيحة الفرصة أمام التّحقيق الاثنوغرافي على وجه التّحديد التقرّب أكثر من هذا الجمهور، ومعايشته عن كثب بغية نقل الصّورة الماثلة أمامه بدقة وموضوعية، خاصة وأنّه يتعذّر اجراء مثل هذه الدّراسات ضمن خصائص السّياق العائلي الجزائري.

من هنا فإنّ هذه الدّراسة التي جرت حيثياتها بروضة "**au Calinou**" خلال الفترة الممتدة من شهر ديسمبر 2017 إلى شهر ماي 2018، تستهدف معرفة حقيقة تجربة المشاهدة التلفزيونية التي يخوضها الطّفل في سياق الرّوضة مع أقرانه بعيدا عن السّياق المنزلي؛ وفرصة لاكتشاف افرازات هذه التّجربة الجماعية ومدى تأثيرها على مختلف التّفاعلات لا سيما وأنّها عرفت انحرافا نحو الفردية بعدما كانت ممارسة جماعية تجمع أفراد الأسرة. وهي محاولة تقود إلى التّصدي لعناصر الموقف الاتصالي كالجنس وطبيعة التّفاعلات بين الفاعلين (الأطفال) قبل وأثناء وبعد عملية المشاهدة التّلفزيونية؛ وهذا بناء على طرحنا للإشكال المحوري التّالي:

كيف يعيش طفل ما قبل المدرسة تجربة المشاهدة التّليفزيونية مع أقرانه في سياق الرّوضة؟

وسيكون مناسبا، طرح جملة من التساؤلات المساعدة للاقتراب من تفسير الظاهرة المدروسة من كافة جوانبها وارتباطاتها: ماذا يشاهد الطّفل، وما مكانة جهاز التلفزيون في سياق الرّوضة؟ ما هي عادات ممارسة المشاهدة في سياق الرّوضة؟ وما هو واقع تفاعل أطفال الرّياض واهتمامهم بالبرامج التّلفزيونية؟ وفيما تتجلى ردود الأفعال؟ ما هي أشكال وطرق التّفاعل مع البرامج التّليفزيونية حسب المتغيّرات الديموغرافية؟ وكيف تؤثّر عملية المشاهدة مع الأقران في سياق الرّوضة على طبيعة تفاعلات الأطفال؟

منهج وأدوات التحقيق الاثنوغرافي :

استثمرت الباحثة المنهج الاثنوغرافي بغية استنطاق تفاعلات أطفال الرّوضة مع البرامج الإعلامية الموجّهة إليهم، ومحاولة تفسيرها، والتّمييز بينها، لتقديم تقرير مفصّل؛ يجعل من تجربة المشاهدة التّلفزيونية الجماعية في سياق الرّوضة واقعا حيًّا ومعاشًا. خاصة وأنّ الباحثة شاركت بشكل كامل في هذا الموقف الطّموح لجمع المعطيات الخام من بيئتها الطّبيعية، وتقديمها كما يراها الصّغار، وليس العكس، وهذا من خلال الاعتماد على أداتي الملاحظة بالمشاركة والمقابلة. وتعرّف الاثنوغرافيا على أنّها "وصف دقيق لكلّ ما نراه أو نسمعه."[1] وهي حسب الباحث "فيترمان" David Fetterman فن وعلم الوصف لمختلف فصول الحياة...[2]

عيّنة الملاحظة :

اختارت الباحثة روضة "au calinou" بالجزائر العاصمة، بصورة عمدية لتكون الروضة التي تطبّق فيها مجريات البحث، وقد شملت عينة الملاحظة 15 مفردة تتراوح أعمارهم ما بين 4 و5 سنوات (منهم 8 اناث و7 ذكور) من المجموع الكلي لأطفال الرّوضة الذي يبلغ عددهم 60 طفلا يتوزعون على (قسم الأصاغر، الأواسط، الأكابر). ورغم صغر حجم العينة، إلاّ أنّ حضور متغيرات كثيرة كالجنس، وجهة الانتماء... يسمح لنا بنوع من التّمثيلية الدّالة والمحدّدة في اطار الزّمان والمكان الذي تتم فيه مجريات الدّراسة. كما أنّه عادة ما يكون عدد الحالات في مثل هذه البحوث الكيفية صغيرا، لأنّ "قدرة الباحث على تقديم صورة عميقة عن المبحوثين تقلّ كلّما زاد عدد أفراد العيّنة."[3]

الحدود الزّمنية للدّراسة :

استمرّت الدّراسة الميدانية ستة أشهر من العمل المتواصل، بمعدل ساعة واحدة في اليوم، إذ حدّدنا الإطار الزّمني للبحث من الفترة الممتدة بين شهر ديسمبر 2017 إلى غاية شهر ماي 2018، مع إقصاء يومي عطلة نهاية الأسبوع وأياما كانت تواريخ لمناسبات عالمية.

تحديد المفاهيم :

1. **الأقران:** Peer group هم جماعة من الأطفال المتقاربين (المتجانسين) في السّن الذين يرتادون نفس الرّوضة ويتعرّضون لنفس البرنامج التّلفزيوني في اللّحظة ذاتها والقاعة نفسها.

2. **سياق الرّوضة:** Kindergarten Context هو المحيط أو الفضاء الّذي يتمّ فيه فعل المشاهدة التلفزيونية بشكل عام، والذي يحيط بظروف التّفاعلات وأنماط تلقي للرّسائل الاعلامية والأطراف التي ساهمت في هذه التّفاعلات، وعنصري الزّمان والمكان، لذلك فإنّ خصوصية الرّوضة وتفاعلاتها هي السّياق العام الّذي تتمّ فيه عملية المشاهدة.

3. **طفل ما قبل المدرسة:** Pre- school children نقصد بطفل ما قبل المدرسة مجموع الأطفال الذين ينتمون إلى الفئة العمرية من 4 إلى 6 سنوات. وينقسمون الى مجموعتين على مستوى صفوف الرّوضة مرحلة الرّوضة ومرحلة التّمهيدي.

استخدامات المنهج الاثنوغرافي في بحوث علوم الاعلام :

لم يعد المنهج الاثنوغرافي كنشاط بصري مقتصر على المجالات الاجتماعية والأنثروبولوجية... ولكنّه تعدّى إلى مجالات جديدة من الأبحاث كأبحاث الجمهور. حيث يصف المختّصون في علم الاقتصاد الاثنوغرافيا "أنّها منهجية بحث تسمح بوصف كثيف وبليغ للفعل الاجتماعي. رغم أنّها ظهرت بين أحضان العلوم الانسانية كخطوة ملائمة وقادرة على جلب بيانات فهم خاصة بالمجتمعات، والثّقافات، ومختلف النّشاطات الانسانية. وقد تمّ استعارتها من قبل حقل التّسويق بغية دراسة جمهور المستهلكين.[4] من جهتها لم تفوّت البحوث الإعلامية فرصة استدعائها مع نهاية القرن الماضي للوصول الى رؤى حاسمة حول استخدامات وسائل الإعلام الجماهيرية في سياقات الحياة اليومية. إذ كان هناك اتجاهات ومجالات لتطبيقها على نطاق واسع، مضيفة بذلك جملة من الأفكار والمفاهيم والمصطلحات، التي أثّثت لبدايات أبحاث

جديدة، ونتائج علمية تصبّ بالأساس في موضوع جمهور وسائل الإعلام والاتصال. ولجأ الباحثون إلى الاثنوغرافيا في"حالات يكون فيها موضوع الدّراسة غير مألوف لدى فريق التّحقيق، وحيث يعتقد أنّ السّياق العام له تأثير مهم في مجريات الدّراسة، يتمّ التركيز عليه لفهم المحيط، وتكوين نظرة شاملة على مختلف المسائل المرتبطة بموضوع البحث الذي لا يتطلب من الباحث بالضرورة معرفة قبلية به".[5]

وبعدما عمّرت سيطرة الأبحاث الكميّة على دراسات الجمهور، والتي همّشت في مجملها أهمية المتلقي، ومختلف الممارسات الفردية،[6] كانت سنوات الثّمانينيات من القرن الماضي نقطة التحوّل ونقل أبحاث الجمهور من دائرة التّأثير بقيادة "دافيد مورلي" David Morley ورفقائه، إلى الاهتمام بعناصر العملية الإعلامية والاتصالية من منطلق الملاحظة الاثنوغرافية، خاصة "أنّ لمشكلات الإنسان طبيعتها الخاصة فهي تختلف اختلافا كليا عن مشكلات المادة."[7] وباعتبار الاثنوغرافيا منهجية بحث تستخدم لدراسة "المنتجات المادية وغير المادية للإنسان."[8]

وكان لما قدّمه "ستوارت هول" Stuart Hall من جهود علمية تحليليّة للجمهور في إطار الدّراسات الثّقافية، التي أفضت أنّ "المتلقي ليس معزولا في افعاله الاتصالية عن الوسائط التي يستخدمها وليس معزولا أيضا عن محيطه."[9] كما تعتبر النّظرة النّقدية التي قدمها السّوسيولوجي "ميشال دوسيرتو" M. De Certeau بداية القطيعة مع تلك الدّراسات الكميّة، ودراسات تحليل المضمون، التي اعتبرها "سيرج بروكس" ظلّت غير كافية لأنّها توجّهت بالأساس إلى معالجة ظاهرة استخدام التّلفزيون خارج سياقه اليومي، وتحليل مضامين الرّسائل الإعلامية... أو أنّها بحوث قائمة على الأساليب الكميّة التي تعني بقياس حجم الجمهور."[10] كما يرى هذا الباحث أنّ "أعمال "دو سيرتو" تتلاقى مع أعمال "بلومر Blumer فيما يخصّ الاستعمالات والإشباعات اطارها النّفسي والوظيفي، مع أنّ "سيرتو" يقترح فتح إشكالية المقاومة اليوميّة ذات الطّبيعة الاجتماعية والسّياسية مقابل عروض أجهزة التّوزيع والاستهلاك."[11]

ونذكّر أنّ "ميشال دو سيرتو" قد طرح إشكالية حبلى برؤية جمالية للحياة اليومية في أبهى تجلياتها البشرية من خلال محاولة الكشف عن جملة الابتكارات والإبداعات التي ينتجها يوميا ذلك الشّخص العادي البسيط المنصهر داخل الحشود. ومنها دعوة إلى "التّعمّق في ظاهرة استخدام التّلفزيون في سياقه اليومي رغم أنّه لم يتوجّه إلى دراسة الممارسات التّليفزيونية.

فهو يعتبرها ممارسة عادية تدور في فضاء من الإبداعات المتردّدة التي تميّزها الحياة اليومية غير الخاضعة لمنطق العقلانية المهيمنة والمنطق البيروقراطي والتّجاري المتحكّم الذي تحكمه أجهزة المراقبة الاجتماعية للمجتمع الاستهلاكي."[12] ليعطي للباحثين مادة تفكير لا تنحصر فقط في الجمهور الفعّال والنّشط الذين تبناها العديد من الباحثين لاحقا والذين سيجدّدون بعمق حقل دراسات التلّقي.

وإلى جانب بحوث الملاحظة الاثنوغرافية لأعضاء الجمهور التي تضع استخدام التّلفزيون في سياق الحياة اليومية (D. Morley et R Silverstone) ارتكز J. Lull أيضا على الملاحظة في عمق العائلة كجماعة طبيعية تمارس المشاهدة، حيث انطلق من إشكالية تدور حول دور التّلفزيون كتكنولوجية منزلية داخل الحياة الأسرية، وأسفرت النّتائج أنّ له دوران أساسيان: أوّلهما اعادة بناء وتشكيل الحياة العائلية على مستوى التّوقيت والعادات السّلوكية كطرق المشاهدة، والثاني فتح باب الحوار بين أفراد الأسرة حول مختلف المضامين التي تتمّ مشاهدتها.[13] كما بيّنت دراسة الألماني "جيمس روج" أنّ استخدام الميديا بقيادة التّلفزيون لم يُعيد تشكيل الحياة العائلية (تنظيم الوقت، التأنّيث في المنزل، الفضاء المنزلي المحتل من قبل التكنولوجيات، التفاعلات..) فقط، وإنّما تسبّب أيضا في خلق الصّراعات العائلية وإبراز المعارضة. وهو ما ستنتجه من القصص اليومية الكثيرة المستمدة من وحي الواقع.[14]

هذا بالإضافة إلى بحوث حديثة (Schleesinger وj. Bourdon)، اعتمدت المقابلة المعمّقة حول الممارسات اليومية واستخدامات التلفزيون... وهي بحوث كانت نقطة ارتكاز لأبحاث أخرى جديدة في ظلّ بيئة تكنولوجية غيّرت الكثير من تفاصيل الحياة، وأبقت أبحاث الجمهور ورشة بحث مفتوحة باستمرار تحاول بين أحضانها علوم الإعلام والاتصال أن تؤسّس لنفسها حقلا معرفيا قائما بذاته يغطي فضاءات واسعة، يسعى للبحث في المقاربات، والعناصر الاتصالية.

اثنوغرافيا الطّفولة :

تعتبر دراسة الطّفولة حصيلة جهود علمية متنوّعة الاختصاصات كونها جزء لا يتجزأ من الاهتمام بالواقع والمستقبل معا، رغم اعتبارها من الدّراسات المعقّدة لأنّها تواجه مشكلات منهجية وموضوعية في آن واحد، حيث لا تزال أدوات البحث في هذا المجال لا تملك الكفاءة في القياس الذي يمكن أن يصل بالنّتائج إلى الدّقة، والتّعميم، والموضوعية، نظرا لصعوبة إخضاع

الأطفال لشروط منهج التّجريب من جهة، ولعدم قدرتهم على التّعبير وبالتالي الحصول على إجابات منهم بالدّقة المطلوبة وعدم إمكان عزل أنماط الظّواهر المراد التّقصي عنها عن تأثيرات خارجية أخرى.[15] ومن المشكلات التي تواجه الباحثين أيضا في حقل الطّفولة "أن الأطفال يختلفون فيما بينهم وراثيًا وبيئيًا وثقافيًا. فليس هناك طفلان يتشابهان تشابها تامًا لأن لكلّ طفل صفاته الخاصة وخبراته، وهو حسب "بياجيه" "ليس صورة طبق الأصل عن عالمه، ولكنّه يجني معارفه بجهوده الذّاتية وبطريقته الخاصة جدا، وأنّ لكلّ طفل خصائصه التي ينفرد بها عن أقرانه."[16] كما أنّ للأطفال أيضا "في كلّ مجتمع مفردات لغوية متميزّة، وعادات وقيم ومعايير، وطرق خاصة في اللّعب، وأساليب في التّعبير عن أنفسهم، ولهم تصرفات ومواقف وانفعالات وقدرات..."[17] لذلك استطاعت الدّراسات خلال العقود الاخيرة التّحرر من الوصف، والخروج إلى الميدان للكشف عن أسرار علاقات الطّفل بمؤسسات التّنشئة الاجتماعية كالأسرة، وجماعة الرّفاق ووسائل الإعلام... لتجد هذه الأبحاث أهميتها ووزنها بين بقية البحوث العلمية.[18]

وفي هذا المضمار وفّر الباحث الأمريكي "روبرت لوفين" Robert A. Levine لمحة تاريخية عامة عن اثنوغرافيا، بجمع الدّراسات والأبحاث التي انجزت في هذا الاطار خلال القرن العشرين "بما في ذلك الأعمال التي أجريت في العلوم البيولوجية واللّغوية والعلوم الاجتماعية، والنّفسية والأنثروبولوجية والأدبية والطبيّة (...) وتطوّرت خلال النّصف الثّاني من القرن الماضي لتغطي جميع مناطق العالم. وهي أعمال اثنوغرافية متعلّقة بالطّفولة جمعت ونشرت سنة 1990 في شكل كتاب. لذلك فإنّ الهدف (...) هو إبراز مدى تنوّع الدّراسات الإثنوغرافية المتعلّقة بالطّفولة التي نشرت على مدى ثمانين 80 سنة الماضية".[19] وهي أبحاث اعتمدت السّرد الوصفي بناء على الملاحظات الميدانية والمقابلات، لأنشطة وتجارب الأطفال في زمان ومكان معيّنين، دون إهمال السّياقات الاجتماعية والثّقافية والنّفسية... فدفعت هذه الدّراسات الاثنوغرافية إلى إعادة النّظر في نتائج البحوث التّجريبية التي لها حساسية تجاه السّياقات المختلفة للسّكان، إذ لا يمكن فهمها دون معرفة تفصيلية للسّياقات الاجتماعية والثّقافية الّتي تعطيها المعنى.

نتائج الدّراسة:

بيّنت تجربة المشاهدة التلفزيونية في سياق الرّوضة أنّ نمط التّلقي لدى الجمهور الصّغير يختلف كليًّا عن أشكال التّلقي لدى الفئات البالغة التي تتمتّع بخبرات سابقة متباينة، وإدراك للمواقف المعروضة. فإن كان التّلقي لدى الكبير يتوزّع بين ثنايا حقائب تجاربه ومعارفه وإدراكاته المتباينة من فرد إلى آخر، فإنّ التّلقي لدى المبحوثين توزّع بين واقعهم وما يُعرض في البرامج، ليحوي وقعا جماليا ينبضُ بالحياة، فالأطفال كانوا جزء من البرامج يشاركون في تلقي العرض وإعادة انتاجه في آن واحد.

1. تبيّن من خلال التحقيق الاثنوغرافي أنّ المشاهدة في سياق الرّوضة طقس يومي هدف إلى امتصاص قلق الأطفال، وتهدئتهم قبل مجيء عائلاتهم من جهة، وإلى تعويضهم عن غياب الحديقة من جهة أخرى. وعليه فإنّ المشاهدة التّلفزيونية في سياق الرّوضة هي امتداد للمشاهدة في السّياق المنزلي، وليست اضافة أو تحسين لها. كما أنّ انتشار التلفزيون في هذه المؤسّسات التربوية واقع مستحدث، يستدعي وعيا بيداغوجيا جديدا وخاصا في التّعامل مع سلوك الطّفل تجاه المادة المعروضة، وحسن استغلالها في عملية التّعليم والتثقف والتّربية من خلال مناقشة المضامين وتقريبها أو مقارنتها مع ما هو موجود في الواقع.

2. أظهرت النتائج أنّ أغلبية البرامج المقترحة هي برامج تربوية وتعليمية وترفيهية، تتوافق مع الخصائص والحاجيات الأساسية للأطفال كحاجتهم إلى تعلّم المهارات اللّغوية. وهي برامج اختلفت مدّة بثّها، واقترحت مادّة كثيفة، متعدّدة الشّخوص، والأنماط الثّقافية والمرجعيات الحضارية، واتضح أنّ المبحوثين يفضلون البرامج التي تعلقوا بها في سياقهم العائلي.

3. تبيّن أنّ البرامج التلفزيونية التي يشاهدها الصّغار هي برامج ناطقة أو مدبلجة إلى اللّغة الفرنسية، ما أعطى للطّفل فرصة إتقان هذه اللّغة على حساب اللّغة الأم، علما أنّ نصّ المادة 22/76 ينصّ أنّ لغة التّعليم في التّربية التّحضيرية هي اللّغة العربية. ونشير إلى أنّ الكثير من البرامج التلفزيونية المختارة وعلى وجه التّحديد القصص؛ وبالرغم من أنّها فتحت عيون الصّغار على مختلف أنواع الكتابات المستنبطة من الآداب العالمية، وإلى تراث شعوب أخرى، إلاّ أنّها أبعدته في نفس الوقت من حيث المضمون القيمي والتربوي، عن تراثه وثقافته العائلية وسياق مجتمعه، الذي يمكن التّعرف عليه عبر بعض الأنشطة، أو سرد القصص الشّعبية. لذلك يمكن القول أنّ التلفزيون كوسيلة ترفيهية وتثقيفية عوّضت القصّة المكتوبة، وربّما لم تدرك رياض الأطفال أنّ مثل هذا الحلّ هو اضعاف لعلاقة الطّفل بالكتاب، وتعويد النّشء على ما هو سهل.

4. أظهر البحث أنّ قانون انشاء رياض الأطفال، وكذلك الاهتمام بفئة أطفال مرحلة ما قبل التّمدرس الهامة في الجزائر يعاني خللا، ففي الوقت الذي يكون فيه الاتساع مطلوب، وشرط ضروري في فضاء الرّوضة على اعتباره عامل يوفّر الحركة الحرّة للطّفل التي تساعده على النّمو الجسمي، والعقلي والنّفسي... وبالرّغم من أنّ المادة الرّابعة من دفتر الشّروط النّموذجي المطبّق على مؤسّسات ومراكز استقبال الطّفولة، تنصّ على ضرورة أن تستجيب هذه الأخيرة لمجموعة من المقاييس منها أن تحدّد العلاقة بين مساحة المحلّ، وعدد الأطفال المستقبلين بـ 1.4 م^2 لكلّ طفل، وأن يكون حجم الهواء الضّروري للأطفال 4 م^3 من الهواء لكلّ طفل.[20] غير أنّ هذا الشّرط لا تَبرزُ ضرورتُه في معظم رياض الأطفال التي تتخذ من شقق العمارات مقرات لاستقبال الصّغار، بالإضافة إلى غياب قوانين توحّد الأسعار والبرامج المسطّرة. وقد دفع غياب المراقبة الصّارمة ببعضها إلى النّشاط خارج الاطار القانوني، أو عدم الالتزام بدفتر الشّروط.

5. جرت المشاهدة التلفزيونية في سياق الرّوضة مع الأقران في ظلّ غياب جهاز التّحكم عن بعد؛ إذ شاهد الأطفال كلّ ما عُرض في قاعة النّشاطات دون تغيير القناة أو البرنامج. الأمر الذي دفع بالصّغار إلى تبني استراتجيات سلوكيّة des stratégies comportementales مكّنتهم من الفرار وتفادي ما لم يرغبوا في مشاهدته. إذ تبنّت يوميات الأطفال خلال المشاهدة التلفزيونية ابتعادا متواصلا عن البرامج التي لم تعجبهم، أو تجذب اهتمامهم، أو لم يشاركوا في اختيارها. فاعتمدوا على المواثبة السّلوكية zapping comportementale تعبيرا عن عدم الرّغبة في متابعة المشاهدة، كانت أعراضها الحركة والنّشاط المستمر، كما أدى الأمر لدى البعض منهم حينها إلى الكثير من القلق والاضطراب والشّعور بالملل دفعهم إلى التّصرّف بصورة فوضوية، وبالتالي حدوث الصّدمات والصّراعات كالعراك بين الذّكور أو الاعتداء على بعض "الممتلكات"...

وبهذا يمكن القول أنّ الأطفال المبحوثين تحكموا في مشاهداتهم من خلال تكتيكات جسمية وسلوكية صدّت ما لم يرغبوا في مشاهدته كنوع من أنواع المواثبة zapping، في وقت رفضوا أيّة محاولة اطفاء التلفزيون الذي بدا وكأنّه جليس مهدئ أو سلّة ألعاب تزوّد منها الأطفال بما أرادوا لإثراء حركاتهم ولَعِبهم... حيث استطاعت البرامج استمطار خيال الأطفال الذين استقوا منها ما دفعهم إلى ابتكار طرق لعب جديدة، وحركات جسمية؛ وقلّدوا بعض الشّخصيات، فحفظوا مختلف الكلمات والتّعابير أغلبها باللّغة الفرنسية. كما حفظوا المعلومات المفيدة كالحساب والألوان وأسماء كلّ ما يحيط بهم بسرعة.

6. اهتم كلّ الأطفال بالمشاهدة عند بداية تشغيل التلفزيون، ولئن اختلفوا ذكورا وإناثا في نوع البرامج. واهتمت أغلبيتهم بما سيُعرض لمدّة لا تزيد عن عشرة دقائق؛ فقلّت الفوضى وحركات الأطفال أثناء مشاهدة البرامج التي رغبوا فيها وأحبوها؛ وسعوا من خلال تفرّجهم وراء تحقيق لذّة المشاهدة؛ وانتظار اكتمال القصّة بفارغ الصّبر. بالمقابل لم يفوّتوا فرصة التّعبير عن اعجابهم بشخصيّات كارتونية أحبّوها، أو تعلّقوا بقدراتها العجائبية. كما شعر الأطفال بالضّيق والتّوتر عندما عُرضت عليهم برامج لا يحبونها. من جهة أخرى تنافس الصّغار المبحوثون على سلوك تقليد الشّخصيات أو تقمّص أدوارها.

7. اتضح أنّ للمبحوث تفضيلات بالرّغم من ميولهم إلى مشاهدة الرّسوم المتحرّكة، إذ كان عنصر"الذّوق" فيصلاً في عملية المشاهدة كما في الألعاب تمامًا. فمن خلال تذوّق واستهلاك الصّغار للمادّة المفضّلة نقدّر مدى استمتاعهم بالتّفرج ومحاكاتهم للمشاهد، بقدر ما استطاعوا في ألعابهم وحديثهم وأفكارهم.. واستطاع الصّغار تطويعهاحسب اهتماماتهم ورغباتهم.

8. لعب متغيّر النّوع دورا هاما في ارساء اختلافات عميقة في عملية التّفاعل التّلفزيوني والذّوق وطرق المشاهدة، حيث تعارضت المصالح بين الإناث والذّكور، وتباينت وجهات النّظر حول نوع البرنامج. فمالت الإناث إلى الرّسوم المتحرّكة الأنثوية التي تكون فيها شخصيّة الأبطال اناثا، وفضّل الذّكور البرامج "الذّكورية" التي توجّهت إليهم، واحتوت مشاهد المجابهة والعنف والألوان الدّاكنة. كما تقمّصت فئة الاناث أدوار الشّخصيات الكارتونية "المؤنثة"، في حين مال الذّكور إلى تقليد الشّخصيات الكارتونية "الذكورية".

9. بيّنت الدّراسة أنّ الذّكور كانوا أكثر عدوانية تجاه المضامين التي توجهت إلى فئة البنات؛ وسعوا بكلّ ما لديهم من قوّة، من خلال اللّجوء إلى إحداث الفوضى العارمة في أرجاء القاعة، والإلحاح المتواصل على المعلّمة لإيقاف عرض البرنامج "الأنثوي" الذي أثار مللهم. وتميّزت فئة الإناث بالهدوء تجاه الذّوق المغاير لذوقهن الخاص، حيث فضلن اللّعب والرّقص في زاوية بدل المشاهدة أو إحداث الفوضى. ولم تكن الصّغيرات أدنى من الذّكور وإنّما كنّ نوعا مغايرا لهم في الذّوق وطرق التّصرّف.

10. أكدّت سلوكات الأطفال أنّ مشاهدة برامج الرّسوم المتحرّكة فعل طفولي محض ولا يمكن تصوّرها دون هذا الجمهور الدّائم الحركة والشّديد الانتباه لما حوله ولكل ما يُعرض، كما بيّنت أنّ شعورهم تجاه البرامج ليست فقط قضاء للتّسلية، ولكنّها نشاط ايجابي له أغراض رغم

بساطتها، فهي وقود تفكيرهم وزاد لطرائق لعبهم، ولغتهم وثقافتهم المشتركة وامتحان لدرجة انتباههم. وقد اكتسب الأطفال العديد من المعلومات المفيدة والثروة اللّغوية.

11. ارتبط تفاعل الأطفال في سياق الرّوضة مع البرنامج بمدى تعلّقهم به ورغبتهم في مشاهدته والإشباعات النّفسية التي يحقّقونها. لذلك يُمكن اعتبار موضوع ديناميكية تجربة المشاهدة التلفزيونية مع الأقران في اطار بحثنا الحالي، فرصة للطّفل للتّعبير عن وجوده وذوقه الخاص بين أقرانه والذي يعطيه التّمايز والتّنوع، ويسمح له معايشة نمط جديد من المشاهدة بعيدا عن السّياق العائلي، خاصة وانهم كائنات ديناميكية لا تكفّ عن الحركة والنّشاط والتّفاعل الذي ينطوي تأثيرا متبادلا بين الأطفال الفاعلين من جهة وبين الأطفال والتّلفزيون من جهة أخرى.

12. حوّل المبحوثون قاعة النّشاطات إلى مسرح انطلقوا بين أرجائه كشريك في إعادة صياغة وابتكار عرض جديد بالتّوازي مع المشاهدة التلفزيونية؛ فكانت هذه القاعة تتحوّل تارة إلى غابة خضراء تجري فيها كلّ أنواع الحيوانات فيُسمع قهقاع الدّببة وعواء الذّئاب، ونجد الأرانب تجري وتقفز هنا وهناك (يتقمّص بعضهم دور الأرنب) وهناك أكثر من شخصيّة "ماشا" تستنجد، وتارة أخرى تتحوّل نفس القاعة إلى مزرعة تُسمع فيها مأمأة الخرفان الكثيرة وصياح الدّيك ونباح الكلاب (وهو ما استوحاه الصّغار من برنامج "الخروف شون"). وأحيانا يلعب الأطفال بلا ملل ويشاهدون التّلفزيون في آن واحد (مشاهدة ومشاهدة موازية)!

13. اختلفت طرق وعادات مشاهدة تلفزيونية لدى المبحوثين من أطفال الرّياض ذكورا وإناثا؛ إذ تباين الأطفال باختلاف الآباء أنفسهم، وما بينهم من فروق فردية، فلكلّ منهم شخصية قائمة بذاتها وفريدة من نوعها. الأمر الذي أثّر في طرق التّفاعل والمشاهدة. وقد أظهر خلال هذه الاقامة الاثنوغرافية بعض الأطفال إدمانا ومبالغة في المشاهدة التلفزيونية، في وقت تميّز غيرهم باحترافية المشاهدة من حيث أنّهم جعلوا من التّلفزيون وسيلة للحصول على ما يغذي خيالهم من أفكار يحتاجونها أثناء لعبهم وتفاعلاتهم **interactions** مع الفضاء ومع بعضهم البعض.

14. اتّضح أنّ المشاهدة مع الأقران لها تأثير أكبر على عملية التّفاعل، خاصة وأنّها أعطت جوا من الألفة بين جميع الأقران وشعورا بوحدة الحال، وشجّعت بعض الأطفال الذين لا يتكلّمون بطلاقة أمام الآخرين على تعلّم الكلمات، والجمل والتّزوّد بثروة لغوية، وترديدها مع الأقران دون خوف أو حرج؛ وشعورهم بالسّرور، والبهجة من خلال المشاهدة مع الصّحبة واللّعب؛ نمّى لديهم الابداع الفكري والحسي، وخيالهم من خلال الانسجام في اللّعب والمشاهدة. وكانت بهذا

المشاهدة التلفزيونية في سياق الرّوضة فرصة وخبرة جديدة هامة للأطفال المبحوثين، فهم شاهدوا التلفزيون، وتفاعلوا على قدم المساواة. وفي بعض الأحيان عبّروا عما ينهك خيالهم بكلّ حرية، ودون أن يسخروا من بعضهم البعض. وعليه فإنّ تأثير الأطفال بعضهم على بعض له مميزاته وفوائده في طريقة المشاهدة وفي تشكيل خيالاتهم، وفي اشباع حاجاتهم النّفسية.

وفي هذا الاطار أكّدت دراسات اجتماعية ونفسية عديدة على أهمية دور جماعة أقران الطّفل على نموّ شخصيته وتربيته. إذ أنّها توفّر المناخ الاجتماعى الذى يزوّده بالأنماط والمهارات، والأدوار والقيم السّلوكية للجماعة. مع التّأكيد أنّ المجتمع الجزائري قد شهد تقلّصا في دور "الحومة" أو "الزّنقة" التي كانت تجمع الصّغار الأنداد في جماعات مرجعية وسيطة، وتسمح لهم باللّعب الجماعي، وهذا بسبب تراجع الثّقة المعهودة في هذا الفضاء الذي استبدل برفيق اسمه التلفزيون؛ فهو أفضل وسائل الحماية من مخاطر الشّارع. وعليه نجد أنّ التلفزيون يلعب دور الحدائق على مستوى رياض الأطفال ويعوض "الحومة" على مستوى السّياق العائلي، ويبقى على علاقة مستمرّة ومتواصلة بجمهوره الصّغير.

ولأنّه "اتضح مع الزّمن أنّ الأطفال لم يكفوا عن مشاهدة التلفزيون، ودراستها ظلّت عاكفة على تحليل المضامين الظاهرة دون الغوص في البحث عن بعض الأبعاد المختلفة، انحرفت بعض البحوث الاعلامية نحو الاهتمام بتأثيرات السّياق الاجتماعي للمحيط العائلي، حيث كشف الباحث Jésus Bermejo Berros أن النّظام العائلي له دور فعال في رسم ملامح وخصوصيات سلوكيات الأطفال تجاه التلفزيون، وأنّ البنية العائلية وخصائص الآباء وخصائص الأطفال تؤثّر تأثيرا بالغا على طريقة المشاهدة لدى الطّفل. لذلك يرى أنّ الطّفل ينطلق من ذاته ومن مختلف العوامل الخارجية التي تؤثّر على سلوكاته وعلى تطوّره الثّقافي.[21]

وهو ما تؤكّده أيضا الباحثة Sara Pereira التي تذكر في دراستها حول "طفل ما قبل المدرسة والوساطة العائلية خلال المشاهدة التّلفزيونية" أنّ العديد من الباحثين على غرار شوفالييه، سوشون، لازار وغيرهم، يتفقون على أنّ طريقة المشاهدة التّلفزيونية لدى الأطفال تتأثّر بالبيئة الأسرية، كما تذكر بين سطور هذه الدّراسة أنّ شوفالييه يعتبر دور الآباء وتصوّر البيئة الأسرية في الوقت الحاضر بعدا أساسيا في دراسة علاقة الأطفال بالتلفزيون".[22]

15. كشفت نتائج المقابلات مع الأولياء أنّ نوع الوساطة الوالدية أثناء المشاهدة ضمن السياق العائلي تراوحت بين الوساطة المراقبة والتّقديرية، والوساطة الصّامتة، لكن طغت الوساطة

الغائبة، وهذا حسب ما قدّمه الباحث الفرنسي J. B. Berros، لأنّه يمكن اختزالها في الثالوث المقترح من طرف الباحثة Sara Pereira : الوساطة المقيّدة، والوساطة التّقييمية، واللاوساطة.[23]

16. تبيّن أنّ الأطفال هم أقلّ تأثّرا بالملاحظة؛ أي لا يتأثّرون بوجود ملاحظين، لذلك استطعنا أن نشاركهم يومياتهم وممارستهم بحرية، لنكتشف التلفزيون كما يراه الصّغار، وهم يتمتّعون بالفرجة وسلطة اللّعب واللّهو في آن واحد، لذلك عندما نقرر ملاحظة جمهور الأطفال، يجب أن نتساءل هل نحن من سنلاحظهم أم هم من سيلاحظوننا؟).

17. كشفت لنا المقابلات مع أولياء الأمور أنّ المشاهدة التّلفزيونية ممارسة يومية مشتركة، تختلف من عائلة إلى أخرى، فهي لدى البعض ليست مجرد مساحة ترفيهية؛ بل لحظة من الأُلفة والمودّة تجري في سياق منظّم يتواصل من خلاله الآباء مع الأطفال، محاولين ربط مجريات المضامين مع ما يحدث في المجتمع. بينما وجدناها لدى بعض الأسر فرصة للانتقال من حياة يومية متعبة بالضّغوطات إلى عالم الرّاحة والاسترخاء؛ وكانت عند بعضهم الآخر النّقطة الفاصلة بين حياة اليقظة والنّوم (مشاهدة التلفزيون قبل النّوم). من جهة أخرى ذكرت نفس العيّنة من العائلات أنّ جهاز التّلفزيون يأخذ أمكنة مخصّصة مختلفة باختلاف العائلات ولكن الأطفال يشاهدون في غرفهم أو في غرفة المعيشة. من هنا تبرز أهميّة التّوصية بضرورة توسيع الدّراسات الاثنوغرافية في السّياق المحلي حتى نتمكّن من استكشاف دور الآباء في توجيه عمليات المشاهدة التلفزيونية، ومختلف أبعادها الحسّاسة، وطقوسها المتباينة، والمعاني التي تنتجها هذه الممارسة الاجتماعية المشتركة...

خاتمة :

سعت الدّراسة إلى اقتحام عالم الطّفولة "المبكرة" وهي تخوض غمار تجربة المشاهدة التلفزيونية في سياق الرّوضة، حيث استخلصنا عبرة أنّ للأطفال إدراك وذوق، وأنّ للفروق الفردية دور هام في تحديد علاقتهم بالمشاهدة، وأنّهم فئة اجتماعية تمثّل جمهورا خاصا في أوضاعه وطرق مشاهداته وتفاعلاته العفوية والطّبيعية، ولحظات مغامراته الجانحة مع المضامين التّلفزيونية. وحتى لا يبقى الجمهورُ الصّغير سوى كلمةً غائبة عن الدّراسات والبحوثِ

الاعلامية المحليّةِ ومجرّدَ ضحيّةٍ لتلاعبات وسائل الاعلام، ينبغي أن نسمع صوته ونعيش داخل واقعه... نتحدّث لغتَه ونفكّر بطريقتِه ونطاوع تصرفاتِه ومنطقَه ونظرته للأشياء، لنعرف حقيقة ممارسته ومناوراته واستراتيجياته، وقدراته على التّخفي خلف شبكة من السّلوكيات والألفاظ الخاصة، والألعاب لتفادي ما لا يحب مشاهدتّه أو فعله، وبهذا نعرف ما يرضيه ويشبع حاجاته.

التهميش :

1. François Laplatine, ``L'ethnologue, le traducteur et l'ecrivain``, *"Meta,"* vol 40, n 3, septembre, 1995, p 505**.**

2. David fetterman,``Ethnography: Step-by-step``, *Applied Social Research Methods Series*, Sage Publications, 1998, p11.

3. كمال عبد الحميد زيتون، **"تصميم البحوث الكيفية ومعالجة بياناتها الكترونيا"**، عالم الكتب،القاهرة، 2006، ص 66.

4. Baptiste Cléret,``L'ethnographie comme démarche compréhensive: immersion dans les dynamiques consommatoires du rap en France``,*revue Recherches qualitatives*, Vol. 32 (2), 2013, tiré de www.recherche-qualitative , consulté le 01 08 2015 à 12.28, pp 50.52.

5. علي قسايسية، **"جمهور وسائط الاتصال ومستخدموها: من المتفرجين إلى المبحرين الافتراضي"**، الورسم للنشر والتوزيع، الجزائر، 20012، ص 207.

6. Daniel Cefai, Dominique Basquier,``*Les sens du public*`` Paris,PUF, 2003, p 18

7. مالك بن نبي، **"ميلاد مجتمع: شبكة العلاقات الاجتماعية"**، ترجمة عبد الصبور شاهين، ط 2، دار الفكر، لبنان، 1974، ص 102.

8. Marcel Mauss, ``*manuel de l'ethnographie*``, éditions Payot, Paris, 1947, p 55.

9. مخلوف بوكروح، **التلقي في الثقافة والاعلام**، مقامات للنشر والتوزيع، الجزائر، 2011، ص 159.

1**0**. Serge Proulx, **"***une lecture de l œuvre de Michel De Certeau: l´ invention du quotidien, paradigme de l activité des usages***"**, *Communication*, vol 15, n 2 automne 1994, p 186.

11. Ibid, p 186.

12. Jean-Pierre Esquénazie,``*La sociologie des publics*``, La Découverte, Paris, 2003, pp 85 86

13**.** Ibid, p 86.

14**.** Daniel Cefai et Dominique, op.cit, p 18.

15 . هادي نعمان الهيتي، **"ثقافة الطّفل"**، عالم المعرفة، الكويت، مارس 1998، ص 19

16. ألفت حقي، **"سيكولوجية الطفل"**، مركز الاسكندرية للكتاب، مصر، 1996، ص 86.

17. هادي نعمان الهيتي، مرجع سابق الذّكر، ص 29.

18. Anne-Marie Fontaine et Jean-Pièrr Pourtois, *Regards sur l'éducation familial: Représentation Responsabilité – Intervention,* éd. De Boeck Université, Belgique,1998, pp 105, 106

19 . Robert A. Levine,``*ethnographic studies of childhood: a historical overview*``, *american anthropologist,* vol 109,issue 2, 2007,p 247.

30. Ibid, p 247.

20 راجع الجريدة الرسمية العدد 53 الصادرة بتاريخ 17 سبتمبر 2008.

21. Geneviève Jacquinot-Delaunay,``Bermejo Berros Jesús: Génération télévision. La relation controversée de l'enfant avec la télévision``, *Revue française de pédagogie Recherches en éducation,* n°170 | janvier-mars 2010, Consulté le 13 05 2013 à 15.37, tiré de https://rfp.revues.org.

22. Sara Pereira, ``Pre-school children and televion : Family mediation", retired from *https://repositorium.sdum.uminho.pt/ 12 02 2016 at 13. 04*

23. Ibid